أوراق العمل
المشاركة في ندوة
"الدراسات البلاغية : الواقع والمأمول"

علم متشابه القرآن
والدرس البلاغي نظرة جديدة

إعداد

د. هدى أحمد زين

علم متشابه القرآن والدرس البلاغي نظرة جديدة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ به مِن شُرُورِ أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُه ورَسُولُه، أما بعد ...

فإن الناظر إلى علوم العرب يجد رحماً وشيجة بينها، تتلاقى في كثير من الأصول والأسس ويمد بعضها بعضاً، وبلاغة العرب نشأت في رحاب القرآن الكريم وعلى ضفافه نمت وترعرعت، ومن العلوم التي أمدت البلاغة العربية علوم القرآن عموماً، وكتب المتشابه خصوصاً، ولاشك في أن معرفة أوجه التلاقي بين المتشابه وعلم البلاغة أمر يمكن استثماره من وجهين:

الأول: معرفة أصل العلاقة:

الثاني: البحث عن منهج صالح للتجديد البلاغي.

أولاً: أما متشابه النظم القرآني وبيان أصل العلاقة، فالمتشابه في اللغة هو التشابه والتماثل، والمشبهات من الأمور المشكلات والمتشابهات المتماثلات، وفي القاموس المحيط: " وشابهه وأشبهه ماثله وتشابها واشتبها: أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا "(١).

---

(١) القاموس المحيط ٤/ ٢٨٦ للفيروز أبادي طبع المطبعة المصرية، ط الثالثة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

من خلال ذلك يتضح أن المتشابه مأخوذ من المفاعلة في (تشابه) للدلالة على وجود الوصف في الطرفين.

وأصله أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف في المعنى كما قال تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ البقرة ٢٥، أي متفق المناظر ومختلف الطعوم(١) وهو أعم من المتشابه في القرآن، وغيره، والدليل على ذلك أن أبا منصور الثعالبي -رحمه الله- ألف كتاباً بعنوان (المتشابه)، وهو كتاب صغير الحجم خصصه لأخبار الأدباء والشعراء والكتاب(٢).

والمتشابه اللفظي يقابله مبحث المتشابه والمحكم في مباحث علوم القرآن، وقد نوه به كثير من العلماء، وأفردوا له كثيراً من المؤلفات، ويميز العلماء بين المتشابه والآيات المشتبهات دفعاً للبس وتحاشياً للخلط، فإذا كان المتشابه هو الذي يحتمل أكثر من وجه من وجوه الرأي والنظر لما فيه من اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ومنه موهم التناقض، فإن الآيات المشتبهات هي عبارة عن الآيات التي اتفقت ألفاظها في الظاهر، وتكررت في القرآن لكنه وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو ما شابه ذلك مما يؤدي في النهاية

---

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تح أحمد صقر (١٠٢)، دار التراث ط ٣ (١٣٩٣ هـ).

(٢) ينظر المتشابه للثعالبي ١١٠ مطبعة الحكومة – بغداد – ط ١٩٦٧ م.

إلى حدوث اختلاف بين الآيتين أو الآيات، كما يدخل فيها أيضاً الآيات التي تكررت بعينها من غير زيادة أو نقصان أو نحو ذلك، والأسرار فيها متعلقة بالبلاغة والبيان والإعجاز، وتخضع في كثير من الأحيان إلى تباين وجهات النظر واختلاف فهم أسباب التشابه وعللها⁽¹⁾.

والأولى خروج الآيات المتفقة لفظاً من حد التشابه، وذلك لاستلزام التشابه وجود اتفاق واختلاف.

وعلم متشابه النظم القرآني لم ينل حظه من الدرس والتأليف قديماً وحديثاً مع كونه من أجل علوم الإعجاز وأدلها على خرق العادة في مجال التحدي بنظم القرآن ولعل هذا لأن عالم متشابه النظم القرآني لا يكفيه تحصيل العلوم الإثني عشر التي يجب توفر العلم بها لدى المفسر بل يجب أن تتوفر فيه موهبة خاصة واستعداد كبير.

أشهر المؤلفات في علم المتشابه القرآني:

المتتبع لمسيرة هذا العلم يجد أنه قد بدأ التأليف فيه من قبل أئمة القراءات حصراً لمتشابه الآي ليتيسر ضبطها على حفظة القرآن، وعلى هذا جاءت كتب حمزة بن حبيب الزيات ت (١٥٨هـ)، وتابعه الكسائي ت(١٨٩هـ) وتوالت الكتب التي أفردت لدراسة تلك الآيات مثل:

---

(١) ينظر: القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة لمباحث القرآن الكريم ٢٥١، د/ صلاح الدين بسيوني رسلان طبع دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ط الثالثة ١٩٩٩م.

١- " رسالة في متشابه التعبير باللفظ في آيات القرآن " للسجستاني.

٢- " متشابه القرآن العظيم " لابن المنادي (٣٣٦هـ).

٣- " درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز " للإسكافي (٤٢٠ هـ).

٤- " البرهان في توجيه متشابه القرآن " للكرماني (٥٠٥هـ).

٥- " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل " لابن الزبير الغرناطي (٧٠٨ هـ).

٦- "تذكرة الحفاظ في مشتبه الألفاظ " للجعبري (٧٣٢ هـ).

٩- " كشف المعاني في المتشابه من المثاني " لابن جماعة (٧٣٣ هـ).

١٠- " فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن " للأنصاري ٩٢٦هـ)(١).

وهذه الكتابات لم تحو من الاجتهاد ما يمكن أن يقرن بما ذكره الإسكافي في درته، وقد تحققت مرتبة الاجتهاد في ذلك العلم للعلامة الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) صاحب كتاب " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل " ولقد أشار كل من تعرض لهذا العلم إلي مكانة الإسكافي والغرناطي فيه(٢).

---

(١) ينظر: من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، د. محمد بن علي بن محمد الصامل (٢٢٩: ١٤)، دار إشبيليا ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) يراجع : الإتقان للسيوطي وبصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي وغيرهما.

أما في العصر الحديث فقلما وجدنا عالماً له هذه الموهبة في دراسة مسائل هذا العلم إلا قليلاً⁽¹⁾.

ولعل هذه الإطلالة تكشف عن الكثير من العلاقات بين علم المتشابه ودرس البلاغة، وهذا مما يجب اتباعه في قضية تجديد بلاغتنا على النمط الذي سلكه الأسلاف عن طريق تحديد ضوابط التوجيه لديهم، وإظهار منهجهم العام في درس المتشابه.

ثانياً: البحث عن منهج صالح للتجديد البلاغي:

تكمن أهمية هذا الموضوع في هذا الوقت نظراً لكثرة طعن الطاعنين والملحدين في لغة القرآن وبلاغته في هذا العصر، فقد ذكر بعض المحدثين أن البلاغة العربية قد اقتصرت على دراسة الألفاظ المفردة فقط من حيث أداؤها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة في معنى واحد ولم يجاوزوا ذلك⁽²⁾ وكذلك فإن طعون الملاحدة في القرآن ولغته وبلاغته لا

---

(١) ومن هؤلاء الدكتور / فاضل صالح السامرائي في كتبه : " التعبير القرآني " و " لمسات بيانية في نصوص من التنزيل " و " بلاغة الكلمة في التعبير القرآني " و " معاني النحو " و " معاني الأبنية في العربية " ود/ الصامل، وغيرهما.

(٢) ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ٢٦٧ لأمين الخولي، طبع دار المعرفة من دون تاريخ، ،تنظر هذه الفرية أيضاً في كتب النقد الحديث التي أرخت للبلاغة والنقد العربيين لأمثال : محمد غنيمي هلال، وطه أحمد إبراهيم، وشوقي ضيف .

تزال متداولة مطروحة في الأسواق حتى الآن خصوصاً بعد ظهور الوسائل الإعلامية الحديثة كالانترنت والكمبيوتر والفضائيات وغير ذلك(١) بل تعددت القراءات الحداثية للقرآن الكريم متبنية نظريات: موت المؤلف، وانفتاح النص، حتى زعم بعضهم صلاحية قراءة البلاغة القرآنية وإعجازه وفق مناهج غربية كالبنيوية والتفكيكية التي تجاوزها الغرب نفسه، ولذلك أردنا الكشف عن طريقة للتجديد من تراثنا.

ويأتي المتشابه في القرآن على أنواع أذكر منها:

١ – ما يشتبه بالزيادة والنقصان نحو ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، البقرة ٣٨ .

و﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ طه ١٢٣ .

٢ –التقديم والتأخير نحو ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ الأعراف ١٢٢ .

و﴿هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ طه ٧٠.

٣ –التعريف والتنكير نحو: ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ البقرة١٢٦ .

و ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ ابراهيم٣٥.

٤ –الجمع والإفراد نحو: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، البقرة٨٠.

و ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ آل عمران ٢٤ .

---

(١) ينظر: حقائق القرآن وأباطيل خصومه شبهات وردود أ. د/ عبد العزيز المطعني، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، سلسة دراسات إسلامية العدد ٧٨ – ٨٠ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥- إبدال حرف بغيره نحو: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ طه ١٢٨ و ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ السجدة ٢٦.

٦-إبدال كلمة بأخرى نحو ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ البقرة٦٠ و ﴿فَانۢبَجَسَتْ﴾ الأعراف١٦٠.

٧-الإدغام وتركه نحو: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾، الأنعام ٤٢، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ الأعراف ٦٤.

٨- اختلاف النظم كله نحو ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة ٥٨، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، الأعراف ١٦١.(١)

والنظر في هذه الوجوه أمر بلاغي خالص، وأهم ما يمكن اعتباره في هذا الصدد مايلي: إن مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم وجه من وجوه إعجازه، وآيات المتشابه بينها أوجه اتفاق واختلاف، و ذلك الاختلاف مرده إلى التلاؤم البلاغي والتناسب الذي يقتضي كل عبارة في موقعها، والنظر إلى الكلام جملة على النحو التالي:

١- أن المذكور قد يكون عاماً في موطن خاصاً في آخر.

٢- أن يذكر الجزء في موطن والجزء الآخر في موطن آخر.

٣- أن يكون للمذكور حالتان فتذكر حالة في موطن وحالة أخرى في موطن آخر.

---

(١) ينظر: درة التنزيل ٣، ومقدمة ملاك التأويل ١/ ٣، والبرهان في علوم القرآن ١/ ١١٣.

٤- أن يكون المذكور قد ورد لكن في أوقات مختلفة ومقامات متنوعة.

٥- اختلاف الأعداد أو الإسناد أو الوصف.

ضوابط توجيه متشابه النظم القرآني:

هناك ضوابط للتوجيه اللفظي والمعنوي لدى علماء المتشابه كانت ذات قيمة في الكشف عن بلاغة القرآن وإعجازه، ويمكن الاستفادة بها في طريق الوصول لنظرية عربية في التحليل البلاغي، ولقد وقع في ظن بعض الدارسين أنَّ بإمكانهم دراسة متشابه النظم القرآني دون تمثل ضوابط توجيه المتشابه كما طبقها أئمته اكتفاءً بما وجد عند المفسرين، والقياس على كلامهم.

وهذا وهم يوقع في أخطاء جسام لأن لكل علم أئمته الذين شغلوا به، وعكفوا على دراسته حتى فرق لهم عن معالمه ودقائقه وضوابطه(١) وهذه الضوابط قد انقسمت لديهم قسمان: قسم لفظي وآخر معنوي.

أولاً: ضوابط التوجيه اللفظي:

إن العلة اللفظية والتشاكل اللفظي يمثلان أساساً مهماً من أسس التوجيه في القرآن عموماً وفي علم متشابه النظم القرآني خصوصاً، وقد

---

(١١) ينظر: ضوابط التوجيه اللفظي لمتشابه النظم القرآني، أ. د/ محمود حسن مخلوف (ص٥٠٧)، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد الخامس والعشرون (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م).

ربط الإمام عبد القاهر البلاغة بحسن الألفاظ في كتابه " دلائل الإعجاز " إلا أنه في " أسرار البلاغة " في ثنايا حديثه عن السجع والجناس ذكر أن المتكلم لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر(١).

كما أننا نجد الشيخ قد ربط كل حسن في خصائص البلاغة وصورها بمدى تلاؤمه مع النظم كما فعل في الاستعارة والتمثيل والكناية وكافة الأبواب وعليه فلا يخرج السجع أو الفواصل وهما أمر لفظي عن هذا، فهما مما يكمن فيه الحسن والجمال والبلاغة مع التلاؤم في النظم، وعليه فقد طبق علماء المتشابه ضوابط التوجيه اللفظي في مؤلفاتهم وأشادوا به، قال الغرناطي بعد تبيان التشاكل اللفظي داخل النظم والفواصل: " فمثل هذا لا إشكال فيه لرعي المناسبة وحصولها في كل من السورتين على أتم وجه"(٢) بل إنه جعل العلة اللفظية ـ وهي مراعاة الفواصل ـ أساس التوجيه في مواضع كثيرة ولم يزد على ذلك، وهذا الأمر متوفر لدى علماء المتشابه بكثرة فإنه من العجيب أن تجد توجيههم لتناغي الراء في قوله: ﴿الٓر﴾، في مفتتح سورة يونس مع جنس الحرف

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ١٤ .

(٢) ينظر : ملاك التأويل ٢/ ٩٣١، ٩٣٢ .

الذي انتشر في بناء كلماتها بل اعتمدوا على أساس الحصر والاستقصاء على مستوى الحروف والكلمات سواء في نطاق السورة أو القرآن كله وهذا الأساس يعد من أهم أسس توجيه المتشابه ونتائجه أقرب ما يكون إلى الصواب واليقين(١).

وقد تمثلت أهم أسس ضوابط التوجيه اللفظي فيما يلي:

١-التناسب اللفظي في بنية النظم.

يمكن أن ينظر إلى هذا التناسب من عدة زوايا تصلح أن تكون ضوابط تقريبية لدراسة هذا العلم مثل:

١-التوجيه بالتشاكل اللفظي في الحروف.

٢-التوجيه بالتشاكل اللفظي في المفردات.

٣-التوجيه بتناسب التراكيب في بعض خصائصها المتماثلة ويشمل:

أ- تناسب الحذف أو الإثبات في التراكيب المتشابهة.

ب- تناسب التقديم والتأخير في التراكيب المتشابهة.

ج- تناسب الجمع والإفراد في التراكيب المتشابهة.

د- تناسب الفصل والوصل في التراكيب المتشابهة.

ه- تناسب التذكير والتأنيث في التراكيب المتشابهة.

---

(١) ينظر: متشابه النظم القرآني بين الإسكافي والغرناطي ١٤٩ .

و- تناسب التعريف والتنكير في التراكيب المتشابهة.

ز- تناسب الفك والإدغام في التراكيب المتشابهة.

٤- التوجيه يتناسب التراكيب في بعض خصائصها المتغايرة.

التوجيه بالتناسب اللفظي القائم على أسس صوتية.

وقد تمثل ذلك في مراعاة التناسب اللفظي في الفواصل، وقد تنوعت مظاهر ذلك تبعاً للجزء الذي حدث فيه التغيير، وطبيعة هذا التغيير الطارئ، فورد على النحو التالي:

١-التوجيه بمراعاة الفواصل لتغاير اللفظتين.

٢-التوجيه بمراعاة الفواصل لتغاير النظوم.

٣-التوجيه بمراعاة الفواصل في تغاير الصيغ.

٤-التوجيه بمراعاة الفواصل حيث كررت لفظة الفاصلة في آيتين متتاليتين.

٥-التوجيه بمراعاة الفواصل في حذف جزء الجملة من النظم السابق(١).

ثانيا: - ضوابط التوجيه المعنوي:

أما التوجيه المعنوي فقد اعتد به الكثير من العلماء وعدوه أساساً معتبراً

---

(١٥) ينظر: ضوابط التوجيه اللفظي لمتشابه النظم القرآني، (٥٣٤: ٦٢١).

في الملاءمة والاختيار وترجيح الوجوه البلاغية، وقد ذكر بعضهم أنه لا يقال في شيء من القرآن أنه قدم أو أخر لأجل السجع لأن معجزة القرآن في مجرد اللفظ بل فيه وفي المعنى. (١)

والتوجيه المعنوي هو التوجيه الذي يقوم على بيان المناسبة المعنوية للكلمة في سياقها ببيان ملاءمتها لما يتحدث عنه موضوع الآية أو ملاءمتها لسياق النظم ومقامه.

قد اعتد به الكثير من العلماء، وعدوه أساساً معتبراً في الملاءمة والاختيار وترجيح الوجوه البلاغية.

وقد تمثلت أهم الأسس التي انبنى عليها التوجيه المعنوي في كتب المتشابه فيما يلي: -

١- التوجيه المعنوي العام.

٢- التوجيه المعنوي مع مراعاة سنن العرب.

٣- التوجيه المعنوي مع مراعاة نهج النظم القرآني.

٤- التوجيه المعنوي مع اعتبار نهج القصص القرآني.

٥- التوجيه المعنوي مع مراعاة الإيجاز والإطناب.

٦- التوجيه المعنوي مع مراعاة الاكتفاء وتجنب التكرار.

٧- التوجيه المعنوي مع تغاير القصد والغرض.

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٥/ ٣٠، ٣١.

٨- التوجيه المعنوي مع تغاير المقصودين.

٩- التوجيه المعنوي مع مراعاة الأصل والفرع.

١٠- التوجيه المعنوي مع مراعاة قصد التخصيص والتعميم.

١١- التوجيه المعنوي مع مراعاة أسباب النزول.

١٢- التوجيه المعنوي مع مراعاة ترتيب المصحف.

١٣- التوجيه المعنوي مع مراعاة اختلاف الدلالات.

١٤- التوجيه المعنوي مع مراعاة أسس بلاغية.

١٥- التوجيه المعنوي مع مراعاة أسس نحوية(١).

وأرى ـ والله أعلم ـ أن منهج علماء المتشابه في تحليل الآيات المتشابهة في جميع جوانبها والموازنة بين الموضعين أو أكثر منهج صالح للتطبيق في مجالات أخرى كالحديث النبوي ويمكن الاستفادة في ذلك بكتب مشكل الحديث من نحو: (اختلاف الحديث للإمام الشافعي، طبع دار الفكر، ط الأولى ١٩٩٦م)، و (كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، الناشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ من دون تاريخ)، ولعل في دراسة اختلاف الرواية في الحديث النبوي الشريف من استثمارات هذة العلاقة.

---

(١٧) ينظر ضوابط التوجيه المعنوي لمتشابه النظم القرآني، أ. د. محمود حسن مخلوف (٦١٧: ٦٦٣)، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، (العدد السادس والعشرون) ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

أوالشعر وقد درس نحواً من ذلك الإمام الطوفي (ت٧١٦هـ) في كتابه: (موائد الحيس في فوائد امرئ القيس دراسة وتحقيق د/ مصطفى عليان، طبع دار البشير ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) فذكر أن شعر امرئ القيس يشتبه بعضه ببعض أو شعره بشعر غيره في اللفظ والمعنى، وعلل ذلك الاشتباه بما هو مثبت في كتابه.

ولا شك أن منهج علماء المتشابه القائم على النظر في الكليات والموازنة بين السياقات المتعددة في المواضع المختلفة يرد على الطاعنين في لغة القرآن وبلاغته ممن أرخوا للبلاغة والنقد العربيين حديثاً زاعمين أن تراث العرب في البلاغة والبيان قد اقتصر على دراسة الألفاظ المفردة فقط لا يتعداها إلى الجملة أو الجمل.

ومن ثم فلم ينفصل هذا الطرح عن الجهود التي بذلت قبله لدى علماء المتشابه، ولكنه أخذ منها، ونوه بها، وفتح الباب لغيره كي يلجه، ولعلي بذلك أكون قد شاركت في مجال البلاغة العربية بطرح متواضع لم يبلغ الكمال بالتأكيد، ولم يشارفه.

وإنه لمن دواعي سروري أن تكون هذا الورقة موجهة إلى قسم وكلية يصرفان همهما نحو النافع من الدراسات القرآنية وغيرها والتي تجلو كثيراً من خصائص بلاغة اللسان العربي وبيانه في هذا البلد الطيب.